# الإعجاز البياني

# في القرآن الكريم

## الضُّحَى ، الشَّرْح

محمد مبارك المزيودي

## سورة الضحى

## مكية باتفاق ، وهي إحدى عشرة آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ
ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦
وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا
ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١ ﴾ الضحى: ١ - ١١

### مناسبة النزول

عن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال

اشتكى النبي ﷺ فلم يَقُمْ ليلة أو ليلتين ، فأتَتِ امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله عز وجل : وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

## مقاطع السورة

**1-المقسم به :** ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ الضحى: ١ – ٢

**2 - جواب القسم :** ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾ الضحى: ٣ – ٥

**3- أدلة جواب القسم :** ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ ﴾ الضحى: ٦ – ٨

**4- ما يترتب على ما سبق :** ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾ الضحى: ٩ – ١١

## التفسير والبيان

**1 - المقسم به :** ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ الضحى: ١ – ٢

أقسم الله عز وجل بالضحى ، بل وجعله اسماً لسورة من سور القرآن ، وقد ذكر السلف الصالح أن الله عز وجل له أن يقسم بما شاء من خلقه ، وهو ما نوافقهم عليه ، ولا نخالفهم فيه أدنى مخالفة ، ولكن من المسلّم به أن اختيار المولى عز وجل لخلق من خلقه ليقسم به ليس اختياراً عشوائياً ، إنما هو اختيار مقصود فيه إشارة حكيمة ، وهو ما يُوجب على أهل النظر والتدبر التنقيب عنها ، وفيما يلي محاولة متواضعة في ذلك :

• في سياق الآيات التي تذكر تمهيد الأرض وبناء السماء لأجل معاش الإنسان ذكر الله الضحى ، وفي ذلك إشارة إلى أنه أساس من أُسس بناء الحياة في الأرض ، قال الله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ النازعات: ٢٧ - ٣٠

• والشمس التي بها قِوام الحياة لم تبلغ هذه الفعالية إلا بضحاها الذي أقسم به جل شأنه إذ قال : ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ الشمس: ١ ، وقد فصّلت ذلك في موضعه .

• وإذا نظرنا إلى أوقات الصلوات الخمس وجدناها تستغرق كل ساعات الليل والنهار ، باستثناء وقت الضحى ، فكل صلاة تبدأ في وقت مُعيّن ، ثم ينتهي ميقاتها مع ابتداء ميقات الصلاة التالية لها . أما صلاتا الفجر والظهر فأمرهما مختلف ؛ لأن ميقات الفجر ينتهي مع شروق الشمس ، وميقات الظهر يبدأ عند الزوال ، وبذلك تكون الفترة الزمنية الكائنة بين الحدين غير مُدْرَجة في قسمة الليل والنهار بين الصلاتين ، أي أن الله تعالى ترك الضحى وحواشيه خَلْواً من الصلاة المكتوبة ...

### فهل بقي الضحى على هذه الصفة ؟؟

لم يتركه جل شأنه على تلك الصفة ، بل جعل فيه صلاة عُرِفت باسم صلاة الضحى ، ولكنه لم يفرضها على عباده ، بل جعل أمر تشريعها إلى عبده ورسوله ، فهي سنة سنّها المصطفى ﷺ ، وهذا هو أول ملمح من ملامح ارتباط القسم بالضحى بما ذُكِر في السورة من مقام رسول الله ﷺ ، **فما هي آفاق هذا الارتباط ؟؟**

قال رسول الله ﷺ : {أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يُبْقي من درنه ؟؟} قالوا : لا يُبْقي من درنه شيئاً ، فقال : {فذلك مَثَلُ

الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا } رواه البخاري ومسلم . وهو حديث نفهم منه أن الله عز وجل جعل للصلوات الخمس فعالية محو الخطايا ، **فهل تملك صلاة الضحى هذه الفعالية ؟؟**

قال رسول الله ﷺ : { يُصبح على كل سُلامَى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تكبية صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، **ويُجزِئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى** } رواه مسلم

في هذا الحديث نجد حقيقتين ؛ **الأولى** : الركعتان المذكورتان محصورتان في وقت الضحى ، فليس لأي ركعتين في غير وقت الضحى أن تُؤدّيا الفعالية المذكورة في الحديث . **والثانية** : السُّلامَى هو المفصل ، وقد ورد في حديث آخر أن عدد ما في جسد الإنسان من مفاصل هو ثلاثمائة وستون مفصلاً ، والصياغة اللغوية في قول رسول الله ﷺ ﴿ على كل سلامى ﴾ صياغة تُستْخدم في معنى الفرض ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ آل عمران: ٩٧ ثم إن الصدقة جعلها الله سبيلاً إلى البركة والنماء في المال ، وذات الغاية تحققها الصدقة على السلامى .

أي أن ركعتي الضحى تجسيد للصدقة على كل سلامى في جسد المسلم ، وبهذه الصدقة تحضر البركة ، ومظهر حضورها سلامة تلك السلاميات وامتداد زمن معافاتها . وكل ذلك أناطه الله تعالى بعبده ورسوله ، ليكون بذلك عطاء معدوداً في جملة العطاءات التي يشير إليها قوله تعالى :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

- وإذا أخذنا في الاعتبار أن ضحى الشمس يعني بلوغها الحد الذي تتحقق معه الحياة

في الأرض ، وأن ضحى الأرض كذلك ، فإن القسم بالضحى في سياق سورة تذكر أمر محمد ﷺ ومقامه العظيم من شأنه أن تكون فيه إشارة إلى أن وجود محمد ﷺ وبعثه كان قياماً للحياة في الأرض وحفظاً لها ، وكل ذلك تمّ اختزاله في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧ . ووجه ذلك أن كل نبي كان مبعثه فقط إلى قومه ، أما محمد ﷺ فقد أرسله الله إلى الناس كافة ، ومن تداعيات كونه رحمة للعالمين وحفظاً للحياة أن الله تعالى ختم به النبوة ، وحفظ رسالته من التحريف والتبديل ؛ لتبقى كلمة التوحيد قائمة في الأرض ، وقد علمنا أن الساعة لا تقوم وفي الأرض ذكر لله ، وهو قول رسول الله ﷺ : ﴿ لا تقوم الساعة حتى لايُقال في الأرض : الله الله ﴾ رواه مسلم .

وهذا الوجه الذي أشرت إليه في دلالة القسم سأزيده بياناً عند بيان العطاءات التي اختُصَّ بها رسول الله ، وكانت رحمة واصلة إلى العباد ، وذلك عند تفسير آيات هذه السورة الجليلة .

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾

سجى : أي سكن ، وحيث إن الليل لاتظهر عليه حركة ينبني عليها وصفه بالسكون توجه أهل التفسير إلى نقل دلالة الفعل ﴿سجى﴾ إلى كل ما من شأنه أن يتحرك من الأحياء في الأرض ، ومن ذلك قولهم في اللغة : ليل قائم ونهار صائم ، مع أن الليل لايقوم والنهار لا يصوم ، إنما هو الإنسان الذي يقوم ويصوم ، وعلى ذلك فهو مجاز مرسل ، علاقته المحلية ، ذكر المحل ﴿الزمان﴾ وأراد الحالَّ فيه ، وهو الإنسان .

وبرغم موافقة هذا التأويل لأصول البيان في اللغة العربية فإن الأمر لا يمنع من النظر في إمكانية إسناد السكون ﴿سجى﴾ إلى الليل ، على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز . **فما هي آفاق هذا النظر ، وما مدى صلته بالتأويل المجازي لسكون الليل ؟**

لقد أُسنِدت إلى الليل دلالات عديدة في كتاب الله : يغشى ، أدبر ، عَسْعَس ، يسري ..

وقد سِيقت هذه الدلالات في إطار الجملة الفعلية ، والفعل تلزمه دلالة الحركة ، أي أن تلك الكلمات تثبت لليل معنى الحركة ، ومن مشاهد هذه الحركة أننا لو راقبنا الأرض من الفضاء الخارجي لرأينا الليل يتحرك باستمرار حول الأرض ، وهذه الحركة ليس لها أن تسكن أبداً ؛ لأن سكونها يعني توقّف نظام الحياة ؛ ولذلك كان لِزاماً النظر إلى دلالة سكون الليل ﴿ سجى ﴾ من خلال ما نشهده في الوسط المحيط بنا ، فما هي تلك الحركة التي تحمل دلالة : سجى ؟؟

يبدأ الليل مع غروب الشمس ، إلا أن الظُّلْمة في هذا الوقت لا تكون حالكة ، بل هي ظُلْمة خفيفة ، ولكن الليل لا يتوقف ؛ لأنه قطعة من الزمن ، والزمن لا يتوقف ، ومع تقدم الليل تزداد الظُلْمة حُلْكة إلى أن تصل إلى آخر حدٍّ لها ، فإذا وصل الليل إلى هذا الحد فقد سجى ﴿ سكن ﴾ ووجه سكونه هو استقرار الظُّلْمة هزيعاً من الليل عند ذلك الحد الذي وصلت إليه ، فإذا ما اقترب وقت الصبح شرع الليل في الحركة رجوعاً : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾ المدثر: ٣٣

فإذا جئنا إلى قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ الفجر: ٤ وجدناه يُثْبت لليل دلالة السُّرَى ، وهو المُضِيّ في طيّات الظُّلْمة ، وكنت قد ذكرت في بيان وجه الدلالة من حذف الياء من الفعل ﴿ يَسْرِ ﴾ أنه إشارة إلى الثلث الثالث من الليل ، وذلك بالنظر إلى أن هذا الفعل ماضيه : سرى ، وهو فعل ثلاثي ، فكان الاقتصار على ذكر الثلثين الأولين منه إشارة إلى أن الثلث الثالث هو الثلث الذي تبلغ فيه الظُّلْمة حدها الأقصى وتستقر عنده إلى حين .

**فهل لذلك من علاقة بمقام العطاء العظيم الذي وُعِدَ به محمد ﷺ ؟**

نعم . له علاقة ، ودليل ذلك قوله تعالى لعبده ورسوله : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ

نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ الإسراء: ٧٩ . فربط الله تعالى ذلك المقام بتهجده ﷺ أي أن هذه الصلاة التي تكون في الليل إذا سجى بـاب مُفْضٍ إلى دلالـة قولـه تعالى : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ .

## 2- جواب القسم : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ الضحى: ٣ – ٥

في هذه الثلاثية اختزل الله تعالى كل ما لعبده ورسوله من كرامة في الدنيا والآخرة :

- ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ النفي بأداة النفي ‹ ما › أقوى من النفي بلا ، أي أنه سبحانه أراد أن يؤكد لعبده ورسوله أنه لم يودّعْه ، والوداع لا يكون إلا من لقاء ومرافقة ، وهذه الدلالة ليست وَقْفاً على رسول الله ﷺ فالله عز وجل لا يفارق شيئاً من خلقه ، فهو الحي القيوم الذي يتعاهد الخلق جميعاً برعايته ، لا يغفل عنهم طرفة عين ، وفي هذه الحالة فإن نفي دلالة التوديع عن رسول الله ﷺ يقتضي الأخذ في الاعتبار ما قدَّره الله لحالته الوجودية من مواصفات ومقامات : فهو ﷺ يشترك مع غيره من الناس في متطلبات الحالة الوجودية ، إلا أنه تميّز عنهم بمقام النبوة ، وهو أشرف مقام يتلبس به إ نسان في الحياة الدنيا ، ولأن ربوبية الله للإنسان تقتضي قيامه جل شأنه على الإنسان بما قدَّره في ذاته من سمات وجودية ، فإن اشتمال محمد ﷺ على مقام النبوة والرسالة يستدعي أن يكون القيام على ذاته قياماً مخصوصاً ، ومن شواهد هذا القيام المخصوص قولـه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ الأحزاب: ٥٦ ، فـقـولـه : ﴿ يصلون ﴾ يحمل معنى الصلة ، ثم هو فعل مضارع يحمل معنى التجدد

والاستمرار ، أي أن صلة الرحمن بعبده ورسوله صلة متجددة ومستمرة ، وهو مضمون ﴿ما وَدَّعَك ﴾ . وهذه الصلة اخْتصَّ بها محمد ﷺ من بين العالمين ، إذ هو المخلوق الوحيد الذي يصلي عليه الله والملائكة والمؤمنون .

- ﴿وَمَا قَلَى﴾ القِلَى ، بكسر القاف ، البُغْض ، وقيل في بيان ذلك :

ما أ بغضَك الله منذ أحبك . ولم يقل : وما قلاك ؛ موافقة لرؤوس الآي المنتهية بالألف المقصورة ، أو استغناء بذكر ضمير الخطاب في ﴿ ما ودعك ﴾ . وفي ذلك لنا ملاحظتان :

**الأولى** : القِلى ليس مساوياً لكلمة البغض ، وذلك أنك قد تكون مُبْغضاً للشيء ومع ذلك تبقى على صلة به ، أما القلى فهو بغض يترافق معه الترْك ، ثم إن القلى لا يكون إلا عن سابق ود وصلة ، وذلك أن المخالطة قد تُفْضي إلى الملالة أو بغض من وددته ، لما ترى من طِباعه ، فتقلاه أي : تتركه لما تراه في نفسك من كراهة لقربه .

ومن هذا الوجه تأويل ﴿ وما قلى ﴾ إذ فيه بيان لمقام المصطفى ﷺ عند ربه ، فهو أكرم وأجل من أن يتلبس بالأحوال التي قد تجعل ربه يقلاه بعد أن اتصل به وحياً . ونفي القلى بعد نفي التوديع جاء من باب ذكر الخاصّ بعد العامّ ؛ وذلك أن التوديع هو الترك مطلقاً ، فهو يستوعب كل الأسباب ، أما القِلى فهو الترك لسبب معين ، وهو البغض .

**الثانية** : ذكر القرطبي أن كاف الخطاب لم تقترن بالفعل ﴿ قلى ﴾ لموافقة فواصل الآي ، وهو قول مردود ، ردّه بعض السلف بقولهم : إن ترك ذكر الكاف إنما جاء تشريفاً لمقام عبد الله ورسوله ، إذ لم يُرِدْ جل شأنه أن يقترن الضمير الراجع إليه بدلالة القِلى ، وبذلك يتضافر هذا المعنى مع دلالة النفي في نقض ما ادّعاه المشركون على رسول الله ﷺ من أن ربه قد قلاه .

﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ الضحى: ٤

عُطِفت هذه الآيـة على الآية السابقة ، ولذلـك هي من جملة جواب القسم ، فما صلة المعنى الوارد في هذه الآية بالآية السابقة ؟

إذا قال جل شأنه لعبد من عباده تخصيصاً ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ كان ذلك فتحاً لكل أبواب الخير في الدنيا والآخرة ، وقد قيل هذا القول لمحمد ﷺ وهو في مكة لا يملك أن يرد أذى المشركين عن نفسه وعن المستضعفين الذين آمنوا بدعوته ، فما الذي وجده ﷺ من الخير اللازم لدلالة قوله تعالى :﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ؟؟

صرف عنه مكر المشركين إذ أرادوا أن يُثْبتوه أو يقتلوه ، وبعد هجرته إلى المدينة أصبح الأمر في يده ، فلا يُقْضى أمر في المدينة إلا من بعد إذنه ، ثم نصره الله على أهل الشرك ، ثم أصبح المال يُجْبَى إليه ، ولو كان يريد الدنيا لكان أغنى الناس ، ولكنه لم يُرِدْها ، واختار أن يبيت طاوياً ، وكل ذلك وسواه كان وجهاً من وجوه الخير في دلالة : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . ثم جاءت هذه الآية بلاغاً ، الله تعالى بأن الخير المرصود له في الاخرة خير له من ذاك الذي كان في الأولى .

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ الضحى: ٥

هذا هو الوعد الثاني الذي وُعِد به رسول الله ﷺ ، وقد أُكّد باللام بعد توكيده بالقسم ، وهذا التأكيد المضاعف لم يكن بسبب شك أو إنكار ، فالمخاطب أعلى الناس إيماناً

بما يأتيه من خبر السماء ، إنما أراد به جل شأنه أن يبلغ به عبده ورسوله درجة اطمئنان القلب لموعود الله ، تماماً كالذي كان من شأن إبراهيم عليه السلام الذي سأل رب أن يُرِيَه كيف يحيي الموتى ، ولم يكن سؤاله سؤال شاكٍّ أو منكر ، بل سؤال من أراد بلوغ درجة اليقين المطلق برؤية هذه الحقيقة رؤية عين ، وهو ما عبّر عنه بقوله لربه ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ البقرة: ٢٦٠ . فمن هذا الوجه جاء التأكيد المضاعف في إخبار محمد ﷺ بأن الآخرة خير له من الأولى وأنه سوف يعطيه ربه حتى يرضى .

﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ المستقبل القريب تُسْتخدم له السين ، والمستقبل البعيد تُسْتخدم له : سوف . فدلّ باستخدام (سوف ) في هذا الموضع على يوم القيامة . والوعد بالعطاء في هذه الآية لا يتوجه إلى المستوى الشخصي الذي توجه إليه قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ وذلك أن خيرية الآخرة تتوجه إلى كل عطاءات النعيم التي سيلقاها ﷺ يوم القيامة ، ولذلك كان لِزاماً أن يكون الوعد بالعطاء في هذه الآية متوجهاً إلى أمته ﷺ ،

**فكيف يكون العطاء له والمستفيد هم أمته ؟؟**

الجواب على ذلك في قوله ﷺ ﴿ ... وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بِسَنَةٍ عامة ، وأن لا يُسَلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فَيَسْتَبيح بَيْضَتهم، قال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ...الحديث ﴾رواه مسلم . والشاهد هو قوله﴿ **أعطيتك لأمتك** ﴾ فالعطاء متوجه إليه تحديداً ، وهو ما تشير إليه كاف الخطاب ، ثم قال ﴿لأمتك﴾ أي أن هذا العطاء لأمتك ، وكأن رسول الله ﷺ وأمته ذات واحدة هو محورها الذي يتوجه إليه الخطاب ﴿أعطيتك﴾ ثم ذُكِر موضع هذا العطاء من تلك الذات الواحدة ، وهو أمته ﷺ .

بل إن كل ما تتقلب فيه الأمة من عطاءات الرحمن إنما هو بسبب محمد ﷺ ، وبما أن الآية تشير إلى عطاءات يوم القيامة ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ فإن الأمر يستدعي بيان هذا الوجه :

عن عبد الله بن عمرو : أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٣٦ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ المائدة: ١١٨ فرفع يديه فقال : ﴿اللهم أمتي ، اللهم أمتي ﴾ وبكى ... فقال الله عز وجل : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل : **إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك** ﴾ رواه مسلم

إن الرجل لا يبكي على أحد إلا إذا كان ذلك الأحد هو نفسه أو أمسَّ الناس قُرْباً منه ،

وهاهو المصطفى ﷺ يبكي خوفاً على أمته من عذاب النار يوم القيامة ، فهل تركه الله تعالى على ذلك ؟ كلا . بل وعده أن يُرْضيه في أمته ، ولا رضى لرسول الله ﷺ في ذلك الوجه إلا بصرف النار عن أمته ، **فهل ذاك كذلك ؟؟**

جاء في حديث الشفاعة الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ :

﴿... فأستأذن على ربي فيُؤْذن لي ، ويُلْهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأَخِرّ له ساجداً ، فيُقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسْتمع لك ، وسَلْ تُعْطَ ، واشفع تُشَفّع ، فأقول : يارب أمتي أمتي ! فيُقال : **انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان** ، فأنطلق فأفعل . ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيُقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسْمع لك ، وسل تُعْطَ ، واشفعْ تُشَفّع ، فأقول : يارب ، أمتي أمتي ، فيُقال : **انطلق فأخرج منها من كان**

**في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان** ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً ، فيقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسْمع لك ، وسل تُعْط ، واشفع تُشَفّع ، فأقول : يارب أمتي أمتي ، فيقول : **انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان** ، فأَخْرِجْه من النار ، فأنطلق فأفعل ﴾

رواه البخاري ومسلم

فهؤلاء الذين في النار كانوا من أمته ﷺ ، وقد بيّنت قبل قليل عُمْق صلة رسول الله بأمته ، وهو ما جعله يبكي خوفاً عليهم من النار ، فما كان منه في مشهد الشفاعة إلا أن كرّر ما كان يردّده في الدنيا ﴿أمتي أمتي﴾ ولكرامته عند ربه أراد الله أن يرضيه ، فأذِن له بأن يُخْرج من النار من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، **فهل استوفى ﷺ بذلك رضاه ؟؟**

كلا . فما زالت هناك طوائف من أمته في النار ، ولذلك يرجع إلى ربه وهو يردد قوله ﴿ أمتي أمتي ﴾ فيُخرج الله له فريقاً منهم ، ولايكتفي بذلك ، بل يعود للمرة الثالثة ويرجو ربه ، فلا يخيب الله رجاءه ، فيُخْرج له حدّاً آخر من أمته . **فهل بلغ ﷺ بذلك حد الرضى ؟**

كلا . فما زال هناك من أمته من يتقلب في النار ، لقد أرضاه الله بإخراج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، وليس هناك ما هو أقل من هذا القدْر ، فماذا فعل ﷺ في شأن هؤلاء ؟؟

في الحديث السابق الذي رواه البخاري ومسلم استدرك أحد الرواة على أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :﴿ ... ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيُقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسْمع ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشَفّع ، فأقول :

يارب ، ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ، فيقول : **وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله** ﴾ .

وعند هذا الحد يتحقق الرضى الذي وُعِد به رسول اللهﷺ من ربه ....

## العلاقة بين ركني القسم

ذكرت في بيان المقسم به أن القسم بالضحى وبالليل إذا سجى فيه التفات إلى مقامه ﷺ ، ففي الضحى خوَّله الله تشريع صلاة الضحى ، وفي الليل أمره بالتهجد ليكون صاحب المقـام المحمود يوم القيامة . وفي الموضعين جعل الله للمسلمين غفراناً ورحمة ، أي أن ما قيّده الله بعبده ورسوله جعله فيضاً على الأمة ، فمع صلاة الضحى البركة والنماء في السلاميات ، ومع صلاة الليل المقام المحمود الذي يتأسس عليه ما ذكرته قبل قليل من حديث الشفاعة .

ففي الركنين ؛ المقسم به والمقسم عليه ، كان رسول الله ﷺ بمثابة الموشور الذي إذا استقبل ضوء الشمس من جهة أخرجه من الجهة الأخرى سبعة أطياف زاهية الألوان ، فكل ما يتعلق بذات رسول الله تتأسس عليه رحمة ، هي في الأصل من الله ، ولكنه سبحانه جعل انبعاثها من ذات عبده ورسوله . وقد تمّ إدراج الآيات التسع وفقاً لهذا النظام ، وهو ما سأعرض له فيما يلي :

3- أدلة جواب القسم : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ الضحى: ٦ – ٨

هذه هي الثلاثية الثانية ، سيقت للدلالة على صدق الثلاثية السابقة ، وقد ابْتُدئت بالسؤال : ﴿ ألم ... ﴾ وهو استفهام تقريري درج استخدامه في القرآن على قضية يُرَاد إثباتها . ويجدر بنا في هذا المقام أن ننبه إلى ملحظ هام ، وهو أن هذه الآيات التسع الواردة بعد آيتي القسم تندرج في ثلاث مجموعات ، كل مجموعة مكونة من ثلاث آيات تستغرق كل أركان الباب الذي أراد الله تعالى بيانه من كل ثلاثية .

وفي ذات الوقت ترتبط المجموعات الثلاث ارتباطاً رأسياً ، وذلك أن الثلاثية الثانية دليل على الثلاثية الأولى ، والثلاثية الثالثة تم بناؤها على الأولى والثانية ، وفيما يلي رسم لذلك الارتباط :

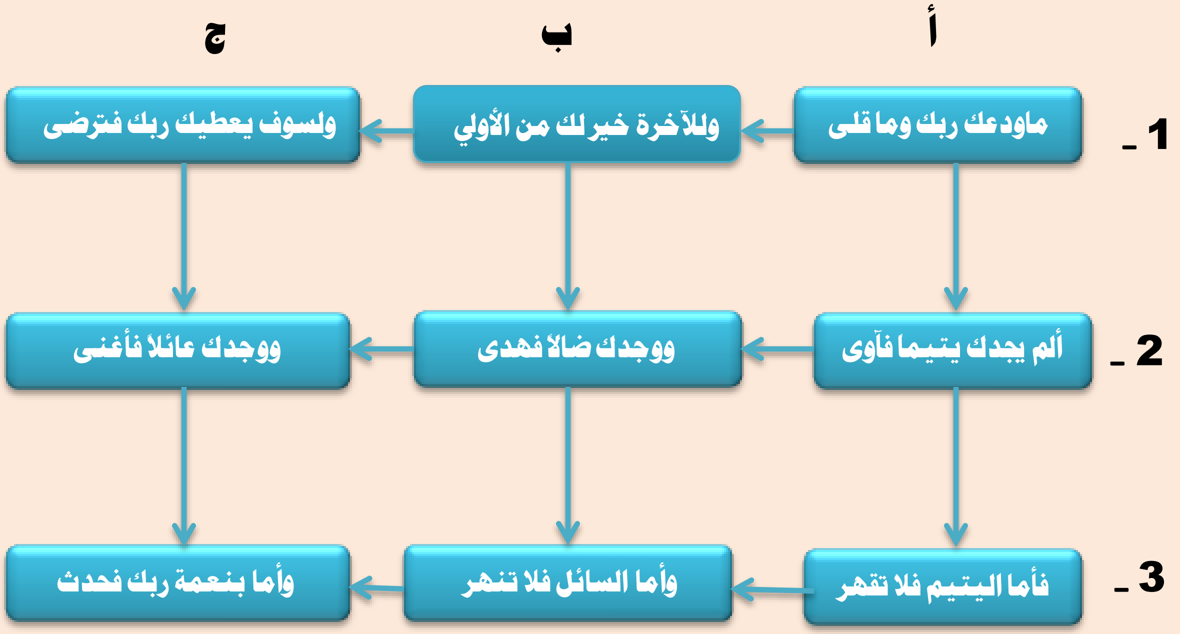


فالثلاثيات {1 ، 2 ، 3 } ثلاثيات مكتملة ، أي أن كلاً منها تستوفي أركان القضية التي هي بصدد ذكرها ، وفي ذات الوقت هناك ثلاث مجموعات أخرى { أ ، ب ، ج } وهي مجموعات يقوم بناؤها الدلالي على السبب والنتيجة ، فإذا أخذناها على المستوى

الجزئي فإن كل آية من آيات المستوى الأفقي تتناسب مع الآية التي تليها في المستوى الرأسي، وهي المستويات التي أشرت إليها بالحروف { أ ، ب ، ج } . وإذا أخذناها على المستوى الكلي فإن الثلاثية الأولى أساس للثانية ، والثانية أساس للثالثة ، وهي المجموعات التي أشرت إليها بالأرقام { 1 ، 2 ، 3 } ، وكل ذلك سوف أعرض إلى بيانه في طيات التفسير والبيان :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ الضحى: ٦

- هذه هي الآية الأولى من آيات الثلاثية الثانية التي تستغرق كل مراحل حياة رسول الله ﷺ اليُتْم والضلال والفقر . وهذه الآية تناظر الآية الأولى من الثلاثية الأولى وهو قوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ حيث ذكر له الدليل على أنه لم يودعه . **فما معنى ﴿ آوى ﴾ وكيف آواه الله ؟؟**

تدل كلمة ﴿آوى﴾ على الملجأ الذي يلجأ إليه المرء هرباً من إذى قد يصيبه ، فأهل الكهف كانوا يخشون أن يفتنهم قومهم عن دينهم فلجأوا إلى الكهف خوفاً من قومهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ الكهف: ١٦ . وابن نوح عليه السلام رأى الطوفان يقتحم الأرض والأحياء ، فصعد إلى الجبل خوفاً من أن يدركه الغرق ، وهوقوله تعالى :﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ هود: ٤٣ . **فما هو وجه سريان هذه الدلالة على اليتيم ؟**

يُولد الإنسان وهو لا يملك أن يرد عن نفسه جوعاً ولا عطشاً ولا مرضاً ، فكان وجود الوالدين مأوى يلجأ إليه بغير اختيار منه ولا منهما ، فيحميانه من أسباب الهلاك ، فإذا تُوفّي الوالد أصبح الولد يتيماً ، أي فاقداً لذلك المأوى ، فهو عرضة للجوع والمرض وسوء

الأحوال ، وقد كان محمد ﷺ في أعلى درجات اليتم ، إذ تُوفي أبوه قبل أن تلده أمه ، وماتت عنه أمه وهو في السادسة من عمره ، فهل تركه الله تعالى فريسة لذلك الفقد ؟

## كلا . بل كان هو مأواه . فكيف أواه ؟

- زمرة من النسوة المرضعات أقبلن إلى مكة ، كلٌّ منهن ترجو أن تحوز طفلاً لترضعه فتنال بذلك أجراً على ذلك ، فلم ترْض أيٌّ منهن بمحمد ﷺ بعد أن عرفن أنه يتيم ، وكانت حليمة السعدية من جملة المتأبيات ، ولكن الله عز وجل أراد لذلك الرضيع أن تذهب به حليمة ، فلم يوفقها لرضيع تأمله ، ووفّق الأخريات ، ولما رأت حليمة أنها ستذهب خالية الوِفاض اختارت أن تأخذ محمداً ﷺ على يتمه ، وكان هذا مبدأ الإيواء من الله تعالى ، لأنه هو المتصرف في القلوب بما يشاء ، هدى قلب حليمة إلى أخذ ذلك الرضيع وهي لا تأمل أن تنال من ورائه نفعاً .

وحيث إن المردود المادي هو الحافز الذي يحرك أولئك المرضعات للإهتمام بأولئك الرضع كان محمد ﷺ أقرب إلى تدني مقدار الرعاية من قِبَل حليمة وزوجها ، وذلك لأنه كان فاقداً لمأواه ﴿ أبـيه ﴾ وهنا يتجلى إيواء الله ، إذ تدخَّل بقدرته فأدخل على حليمة وعلى زوجها ، بل وعلى دوابهما خيراً عظيماً ، وهو ما جعل زوج حليمة يهمس في أذنها بأنها قد أخذت نسمة مباركة ، ففي رحلة القدوم إلى مكة كان حمار حليمة ضعيفاً بطيئاً جعل الأخريات يتبرّمن منها ومن حمارها ، وفي رحلة العودة كان هذا الحمار يسبق بقية الدواب ، وفي بادية بني سعد كانت غنم حليمة يرجعن حُفَّلاً ، وغنم سائر القوم يرجعن هزَّلاً وضروعهن شحيحة .

وقد علمت حليمة وزوجها علم اليقين أن الخير الوفير الذي دخل عليهما كان بسبب هذا اليتيم المبارك ، فكانا أحرص عليه من حرصهما على بنيهما ، وهو حرص كانا به بمثابة

الأب والأم لمحمد ﷺ . وكل ذلك إنما كان من عمل الله تعالى ، وهو مدلول قوله تعالى ﴿ فآوى ﴾.

● وبعد عودته إلى مكة تُوفّيت عنه أمه ، فكفله جده عبد المطلب ، ومن شواهد طبيعة هذه الكفالة أن عبد المطلب كان يُفْرَش له فراش في ظل الكعبة ، فلا يجرؤ أحد من أبنائه أو من أحفاده على أن يجلس في مكانه ، فيأتي محمد الطفل الصغير فيجلس فيه ، فينتهره أعمامه : قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يُوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من أبنائه إجلالاً له ، قال : فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : **دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً** ، ثم يُجْلسه معه عليه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع .

فلم يكن أحد ليقهره بسبب يتمه ، بل كان عزيزاً بما جعل الله له من حب في قلب جده وفي قلب عمه . وهذا الباب لو أردت الاسترسال فيه لطال بنا الحديث ، وفي ما ذكرت كفاية لبيان كيف آوى الله محمداً ﷺ .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ الضحى: ٧

هذه شهادة من الله تعالى بأن محمداً ﷺ كان ضالاً قبل أن يهديه الله ، ولكن وجب أن ننظر إلى ما أُسْنِد إليه من ضلال بما ينسجم ويتواءم مع اختيار الله له ليكون نبياً رسولاً .

في إطـار المعنى اللغوي لا يُوصف المرء بالضلال إلا إذا أخطـأ الطريق إلى غـايته ،

وهذا هو أصل الضلالة في دين الله ، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان لغاية محددة ألا وهي عبادته ، وألقى في فطرته عقيدة التوحيد ، وما على الإنسان ليكون مهتدياً إلا أن يحمل قلبه ونفسه وجسده على المنهج الصحيح « الطريق المستقيم » . فإن تنكب ذلك الطريق فقد ضل ، والناس في هذا الضلال صنفان : صنف ضلّ عن الطريق الحق ، واتبع طريقاً آخر وهو يؤمن بأنه هوالطريق الحق ، وصنف نظر فيما بين يديه من طرق فلم يقتنع بأيّ منها ، وفي ذات الوقت هو لا يجد ما يدله على الطريق الحق ، فهو بذلك ضال قد غاب عنه السبيل ، إلا أنه ربأ بنفسه عن الدخول فيما دخل فيه أصحاب الضلال السابق ، وهو ما كان عليه محمد ﷺ قلباً وجسداً ، فلم يسجد لصنم من الأصنام ، وعندما طلب منه أحدهم أن يحلف باللات والعزى في رحلته التجارية إلى الشام قال : **ما حلفت بهما قط** ، أي أن هذه الأصنام لم يكن لها مكان في قلبه ولا على لسانه ، ثم إنه ﷺ لم يكن على شيء من أخلاق الضلال الأول ، لم يكذب ولم يخن حتى لقبوه بالصادق الأمين ، ولم يشرب خمراً ولم يُقارف شيئاً من تلك المفاسد التي كانوا عليها .

ولم يَكُفّ ﷺ عن تطلعه الدائم إلى طريق الحق ، إلى أن أفضى به الاستغراق في ذلك البحث إلى الاختلاء بنفسه على قمة جبل حراء ، والنظر في ملكوت السماء ، إلى أن حانت ساعة الهداية ، فأرسل الله جبريل عليه السلام يحمل إليه كلمات الله التي دلّته على الطريق الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴾ الضحى: ٨

هذا هو الركن الثالث الذي استوفى به الله الأركان التي تبين الآفاق الدالة على أنه لم يودع عبده ورسوله ، ففي الركن الأول ذكر مرحلة الطفولة وما اكتنفها من يُتمٍ ، حتى إذا

بلغ الحلم اعتوره أمران : الضلال والفقر ، فأما الضلال فقد أخرجه الله منه بما أوحاه إليه ، ثم أخرجه الله من الفقر ، وبيان ذلك فيما يلي :

ألقى الله تعالى في قلب خديجة ﵂ الرغبة في الزواج من محمد ﷺ ، وهي التي ردّت أشراف القوم وأغنيائهم ، فما الذي جعلها تتوق إلى الزواج منه على ما هو عليه من فقر ؟

إن قلب الإنسان بيد الرحمن يقلبه كيف شاء ، ومن ذلك أنه صرف قلب خديجة ﵂ إلى محمد ﷺ فأصبحت لا ترجو لنفسها أحداً سواه ، وقد كانت ذات عقل وجمال ومال ، وهو ما جعل رسول الله ﷺ يصفها لاحقاً بقوله : ﴿ **خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد** ﴾ رواه البخاري ومسلم .

فأغنى الله عبده ورسوله من جهتين : جهة المال ، فلم يشْكُ عَيْلَة ؛ لأن خديجة جعلت مالها تحت أمره بدون طلب منه ، وأغناه من جهة الزوج إذ قضى بأن تكون خير نساء الأرض فيما سبق من علمه زوجاً له ، وقد تجلّى هذا المقام في مبعثه ﷺ ، فكانت أول أهل الأرض إيماناً به ، بل كانت وجه البشارة له فيما لقيه في غار حراء : قال لها ﷺ ﴿ لقد خشيت على نفسي ، فقالت : كلا . أبشر ، **فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ ، وتكْسِب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق** . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ...﴾ رواه البخاري ومسلم . فسمع رسول الله ﷺ منها ما قرّت به نفسه .. **فأيُّ امرأة هذه !! إنها لعمري كما قال فيها رسول الله** ﴿ **وخير نسائها خديجة** ﴾ .

إذاً ، وجد الله محمداً ﷺ عائلاً فأغناه بزوجة حكيمة ومال وفير ، وهوذات المسار الذي أجراه جل شأنه مع عبده ورسوله موسى ﵇ ، فقد خرج من مصر خائفاً يترقب ، فانتهى

به المطاف في مدْين وقد أمَضَّه الجوع والتعب ، ولما بلغ ماء مدين رأى الرعاة يسقون دوابهم ، ومن دونهم امرأتان تريدان ما يريد الرعاة ، ولكن الحياء يمنعهما ، فسقى لهما موسى عليه السلام ثم انصرف إلى الظل ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ القصص: ٢٤ فإذا هو بإحدى الفتاتين ترجع إليه بعد أن ردت الغنم إلى مرابضها : ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾ القصص: ٢٥ فلقد كانت هذه الفتاة ذات عقل وحكمة ، فقد رأت من شهامة موسى وأدبه الجم وقوته ما جعلها تتوق إليه زوجاً ، فابتدأت السعي إلى ذلك بحجة : ﴿ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾ وعندما جلس إلى أبيها وقص عليه القصص ، لم ترِد أن تضيع على نفسها الفرصة فقالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ القصص: ٢٦ ففهم الأب ما في نفس ابنته ، أو أنه أراد لابنته ما أرادت فقال : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ ﴾ القصص: ٢٧ .

إذاً ، اشتكى موسى عليه السلام الفقر فأغناه الله ، فآتاه الغنى من بابين : الزوجة الحكيمة والرزق الذي تأتّى له برعي تلك الأغنام ، وهو ما مضت عليه دلالة ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ في شأن محمد صلى الله عليه وسلم .

- هذه السورة سورة مكية ، وهو ما يستدعي أن يكون تأويل قوله تعالى ﴿ فَأَغۡنَىٰ ﴾ على الوجه الذي عرضته قبل قليل ، ومع ذلك فإن التأويل من شأنه أن يمضي إلى وجوه أخرى في غير زمن مكة ، ومستند هذا التوجه أن سنة الله مع عبده ورسوله سنة ثابتة ، تمضي معه في كل أحواله ، فقد ماتت خديجة رضي الله عنها وهاجر محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو لا

يملك مالاً ، أي أنه كان ﴿عائلاً﴾ فأغناه الله بأن فرض له الخمس فيما يغنمه المسلمون . ولو أنه كان يريد الغنى لكان أغنى الناس بما فرض الله له ، ولكنه كان أزهد الناس وأكرم الناس ، ينفق ما يصل إلى يديه في سبيل الله ويبيت طاوياً ، لا يجد ما يأكله ، وقد قلت في ذلك :

لو كانَ يَبْغِي الغِنَى كانتْ لهُ خِزَنٌ    مِنْ خُمْسِ ما وَهَبَ الرحمنُ منْ غَنَمِ

لكنهُ خَبَرَ الدُّنيا وشِرَّتَهَا    ومَا لَهَا مِنْ شِرَاكِ اللونِ والطُّعَمِ

فانْحازَ عنها كريماً طَاهِرَ الدُّثُر    قدْ ذَمَّهَا ذَمَّ مَعْصُومٍ من التُّهَمِ

## 4ـ ما يترتب على ما سبق : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ الضحى: ٩ – ١١

هذه هي الثلاثية ، وقد وضعت لها العنوان المذكور لأن كل آية من آياتها تشريع شرعه العليم الحكيم تأسيساً على ما يناظرها في المجموعتين الأوليين ، وهو ما أشرت إليه في الرسم السابق بالمجموعات " أ ، ب ، ج " وهذا هو موضع بيان ذلك الارتباط الرأسي :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ الضحى: ٩

أمَّا : حرف شرط وتفصيل وتوكيد .

لا تقهر : القهر هو أن يُغْلَب المرء على نفسه فلا يملك أن يرد عنها ما لا يحب ، وهو

أمر لا يتأتّى إلا بكون المقهور ضعيفاً أمام قاهره ، واليتيم ضعيف وذلك لفقد أبيه الذي كان يرعاه ويرد عنه كل ما من شأنه أن يسوءه . فقوله ﴿ لا تقهر ﴾ يعني به ، كما قال ابن كثير ، لا تذله ولا تنهره ولا تُهِنه ، ولكن أحسن إليه وتلطّف به ، أي كن لليتيم كالأب الرحيم . وقال أيضاً في معنى الآية : **كما كنت يتيما فأواك الله فلا تقهر اليتيم** . وهذا الكلام هو صُلْب ما ذهبت إليه في شأن الارتباط الرأسي بين ثلاثيات الآيات التسع ، إلا أنني سأذهب إلى أبعد مما ورد في هذا التفسير ، وفيما يلي تدوين للثلاثيات الرأسية الثلاث :

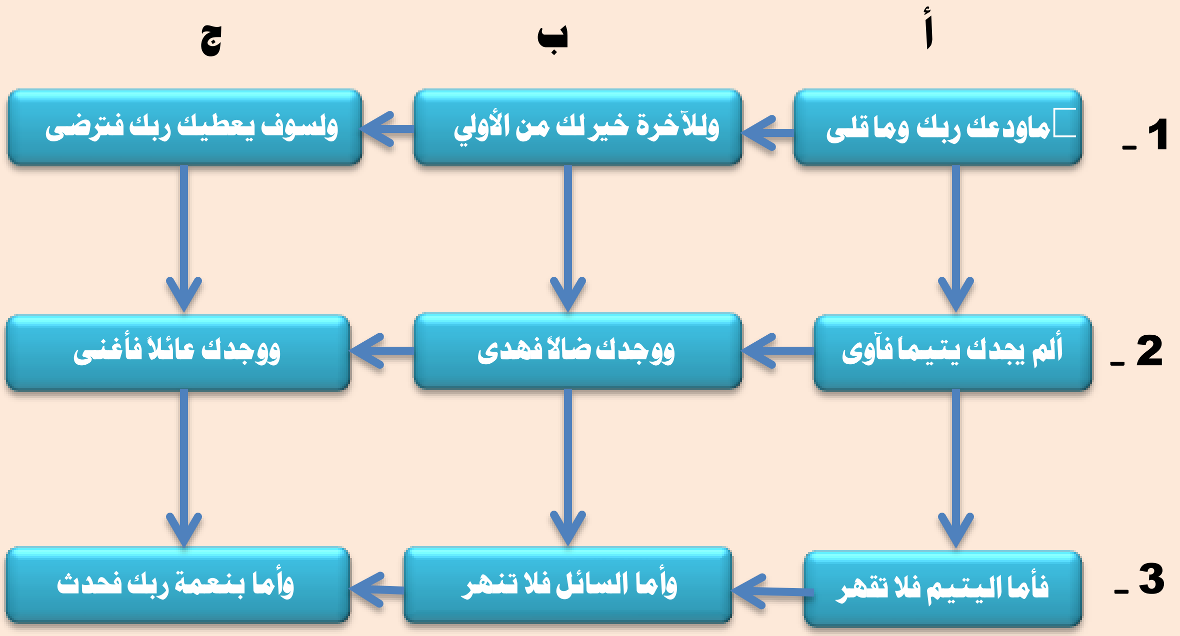


والمعنى : إن ربك لم يفارقك صغيراً ولا كبيراً ، ودليل ذلك ما سخّره الله لك من أسباب الرعاية والكرامة حال كونك يتيماً ، وكما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أي افعل به كما فعل الله بك ، وفي ذلك تعظيم لشأن اليتيم إذ جعل إيواءه محاكاة لإيواء الله عبده ورسوله . والخطاب في قوله ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ موجّه في الأصل إلى محمد ﷺ ولكن هذه الخصوصية لا تقف بالتشريع عنده ، بل هو خطاب لكل من آمن به ، وهنا

يتضح لنا الوجه الذي ذكرناه في تأويل : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴾ وهو أن الله تعالى اعتمد هذه الخصوصية في عبده ورسوله فجعلها مسْقطاً من مساقط الرحمة بالأمة مثلما كانت صلاة الضحى سبباً للبركة والنماء في الجسد ، ومثلما كان تهجده ﷺ سبيلاً للمقام المحمود الذي هو أيضاً رحمة بالأمة . ولو شئت أن أقول لقلت : إن ما شرعه الله في حق اليتيم وما رصده من ثواب لمن آوى يتيماً إنما كان بسبب يُتْم رسول الله ﷺ .

وهذا الارتباط الرأسي من شأنه أن يجعل أركانه أركاناً متلازمة ، أي أن كل من لايقهر

يتيماً مستحقٌ لأن يكون له نصيب في قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ومظهر هذا النصيب أن الله يتعاهد كل من أكرم يتيماً ، ليجعله من أصحاب الكرامة يوم القيامة ، وهو ما فصلنا فيه القول في سورتي : الفجر والبلد . فمعية الله للعبد تجعله مباركاً في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ الضحى: ١٠

جاء في تأويل السائل قولان ، الأول : هو السائل في أمر الدين ، والثاني : هو المحتاج الذي يسأل الناس ما يتصدقون به عليه . والتأويل المختار عندي هو التأويل الأول ؛ لأنه هو التأويل المتوائم مع نظام الثلاثية الرأسية الثانية " ب " .

فالآخرة هي صلب الدين وعموده بعد الإيمان بالله وحده ، وقد تردّد كثيراً في كتاب الله الجمع بينهما ، وهذا الجمع له دلالة ، وهي أن من آمن بالله آمن بأنه راجع إليه في يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين . وقد كان محمد ﷺ قبل أن يُوْحَى إليه ضالاً عن خبر الآخرة ، فهداه الله إليها بما أوحى إليه من قرآن ، فكان من واجب حق الله عليه أن يهدي غيره إليها كما هداه الله إليها ، وهذا الكلام هو مضمون ما ذكره أهل التفسير من

علاقة هذه الآية بالآية السابقة لها في الخط الرأسي ، وكل ذلك متصل بأمر الآخرة ، لأن الآخرة لن تكون خيراً للإنسان من الأولى إلا إذا كان على بينة من أمر دينه ، وهذه البينة لا تتحقق إلا بالسؤال ، وذلك لمعرفة الحق والحلال والحرام .

وفي هذا النظام الرأسي ، أيضاً ، تتضح المساقط التي فصلت فيها القول في المقسم به . وهي أن هداية محمد ﷺ لأمر الآخرة كانت هداية للناس ، فهي رحمة انبعثت من الله تعالى عبر محمد ﷺ .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى: ١١

وهذه الآية هي الآية الثالثة في المجموعة الرأسية الثالثة ، وفي ارتباط الآيتين الثانية والثالثة قال ابن كثير : وكما كنت عائلاً فأغناك الله فحدث بنعمة ربك . إلا أنه لا بد من امتداد الارتباط إلى الآية السابقة لهما في الارتباط الرأسي ، وذلك أن العطاء الذي يبلغ بالإنسان حد الرضى نعمة كبرى من الله ، وقد شهد رسول الله ﷺ نعمة ربه عليه ، إذ كان فقيراً فأغناه الله ، ثم أمره سبحانه بأن يحدث بنعمة الله عليه ، والخطاب للنبي ﷺ والحكم عام ، له ولأمته .

والتحدث بالنعمة هو الإخبار بها ، وقد أخذ العلماء في ذلك مسارين : **الأول** أن يذكرها للناس بلسانه ، **والثاني** أن التحدث بها هو أن يُظْهِر للناس نعمة ربه عليه فيما يشهده الناس من أحواله ، والمعنيان كلاهما ليسا مطلقين ، فالذكر باللسان محظور ومحذور ؛ لقول رسول الله ﷺ : ﴿ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود ﴾ وإذا كان المراد بالتحديث أن يُبْدِي الإنسان نعمة الله عليه في نفسه وفي معاشه ، فهو أيضاً معنى محظور ومحذور ؛ لأن الدلالة الثانية لكلمة ﴿ حَدِّث ﴾ تقتضي أن يكون صاحب النعمة من المترفين ، في حين أنّا لا نجد في كتاب الله إلا ذمّاً للمترفين ، أي أن دلالة

﴿حدِّث﴾ في إطار هذا المعنى ليست دلالة مطلقة ، وواقع البيان أن الكلمة جاءت مطلقة ، أي بدون تقييد ، **فما هو المعنى الأمثل لهذه الكلمة ؟**

إنه الشكر . والمشهور أن الشكر هو أن يلهج اللسان بالثناء والامتنان ، وقد قال جل شأنه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ إبراهيم: ٧ فمن شُكْرِ الله أن يلهج لسانك بالثناء على الله إقراراً بنعمته عليك ، ومع ذلك فإن الشكر تمضي دلالته أيضاً إلى العمل ، بمعنى أن يكون الشكر عملاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ سبأ: ١٣ . فالشكر الأعظم لله على ما أنعم به عليك أن تصل الفقراء والمحتاجين بقدْرٍ من هذه النعمة ، وهي دلالة ﴿ حَدِّث ﴾ وبهذا الوجه تتساوق دلالة الآية مع دلالة الآيتين السابقتين لها في الارتباط الرأسي : فقد وعد الله عبده ورسوله ﷺ بأنه سيعطيه حتى يرضى ، وذكر له دليـلاً على صدق هـذا الوعد بتذكيره بما أغنـاه الله به بعد إذ كان ﴿ عائلاً ﴾ فتأسّس على ذلك ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي افعل مع الناس فعل ربك معك ، وهو أن تعطيهم عطاء يصل بهم إلى حد الرضى ، ولذلك كان ﷺ يعطي عطاء كثيراً ، أو كما قال أحد المؤلفة قلوبهم : **يعطي عطاء من لا يخشى فقرا** .

كنت قد بينت دلالة المساقط الهندسية في تأويل ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ والبناء ذاته يمضي على هذه المحاور الرأسية ، وذلك أنه سبحانه أنفذ هذه المقامات إلى الأمة من خلال ذات عبده ورسوله ؛ كرامة له ﷺ .

- فمن آوى يتيماً آواه الله في دنياه ، وذلك بحفظه في نفسه وأهله وماله ، ثم يكرمه الله في أخراه بالجنة ، وكل ذلك تتجلى فيه دلالة ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

• ومن كان صاحب علم ثم علّم كل سائل ما يهمه من أمر دينه كان ذلك التعليم تزكية له ونوراً يزيده اهتداء إلى الحق ، فإذا كان يوم القيامة كانت الآخرة خيراً له من الأولى ، وشاهد ذلك أن الله قرن العلماء بالأنبياء في مقام الشفاعة ، لقول رسول الله ﷺ : ﴿ **يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء** ﴾ رواه ابن ماجه

• ومن حدَّث بنعمة الله عليه ، أي أنفق منها في سبيل الله ، حفظه ذلك الإنفاق من العَيْلة ، أي من الفقر ، وذلك أن الله يزيد ماله نماء وبركة ، ليجعله بذلك غنياً ، فإذا قامت القيامة أعطاه ربه عطاء يرضيه ، وليس إذ ذاك عطاء يرضاه الإنسان إلا الجنة .

## سورة الشرح

## مكية باتفاق ، وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا
لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ
رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ الشرح: ١ – ٨

### علاقتها بسورة الضحى

ابْتُدئت السورة بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ وهو أسلوب لا يأتي ابتداء ، إنما يأتي تعقيباً على قضية ذُكِرت من قبل ويُراد إثباتها ، وهو أسلوب تردد كثيراً في كتاب الله ، ولذلك

كان ابتداء السورة بهذه اللازمة دليلاً على ارتباط هذه السورة بسورة الضحى ، وأن ما جاء فيها إنما هو مزيد إثبات لحقيقة قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . وقد أدرج جل شأنه الآيات الأربع الأولى في نظام الثلاثيات :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ العطاء الأول

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ العطاء الثاني

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ العطاء الثالث

فإذا جئنا إلى ما تأسّس على التذكير بذلك العطاء ، وهو قوله تعالى لاحقاً : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ علمنا أن السورة جاءت التفاتاً إلى حال من أحوال محمد ﷺ في أول الدعوة ، وهو أنه كان يجد في نفسه شيئاً مما كان يجده من عُسْر في سبيل الدعوة إلى الله ، وربما تردد في نفسه أن ذلك العسر إنما هو بسبب إعراض من الله عنه ، أو بسبب غضب عليه ، ودليلنا على إمكان هذه الحالة ما تعرّض له ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبي طالب ، وما ترتّب على ذلك من ازدياد أذى قريش له . فاضطر إلى الخروج إلى الطائف ؛ لعله يجد خيراً مما كان يجده في مكة ، فلقي في الطائف أشد مما مر عليه في مكة ، فتوجه بالدعاء إلى ربه ، وكان من جملة هذا الدعاء : « ... **إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي** .. » ذكره ابن إسحاق . □

فسورة الشرح حالها كحال سورة الضحى من حيث إنها تثبيت للنبي ﷺ أمام ما يعرض له من عسر في الدعوة إلى الله . ففي سورة « الضحى » تم الالتفات إلى استطالة فترة انقطاع الوحي عنه ، حتى قال الكافرون : لقد ودعه ربه ، فكان لقولهم هذا وقع في نفسه ، فخاطبه جل شأنه بذلك الخطاب العظيم ، وفي سورة « الشرح » تم الالتفات إلى ما كان يجده ﷺ من عسر ومشقة في دعوة الناس فخالطه ما خالطه مما أشرنا إليه قبل قليل ، فأنزل الله سورة « الشرح » .

## مقاطع السورة

1 ـ صلة الله برسوله : ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾

ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ الشرح: ١ – ٤

2 ـ ما على الرسول إلا البلاغ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا

﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾ ﴾ الشرح: ٥ – ٨

## التفسير والبيان

**1 ـ صلة الله برسوله :** ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ

﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ الشرح: ١ - ٤

أربع آيات نبّه الله فيها عبده ورسوله إلى أنه محفوف برعاية خاصة منه سبحانه :

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ الشرح: ١

• أشرت فيما سبق إلى أن الاستفهام المنفي ﴿ أَلَـمْ .. ﴾ يأتي تعقيباً على قضية يُرَاد إثباتها ، فكان ابتداء السورة بهذا الاستفهام بدون ذكر القضية إشارة إلى خصوصية ما فيها من خطاب ، وأعني بذلك أن القضية التي جاء من أجلها هذا الخطاب محصورة بين الله

تعالى وبين عبده ورسوله ، ولإيضاح ذلك نقارنه بما جاء في سورة ﴿ الضحى ﴾ التي تم الالتفات فيها إلى السبب الذي استدعى انزولها ، وهو قول المشركين : إن محمداً قد ودعه ربه ، أي أن القضية في سورة ﴿ الضحى ﴾ ليست محصورة بين رسول الله وبين ربه ، بل هي قضية دائرة على ألسنة الناس ، ولذلك أشار جل شأنه إلى القضية بقوله ﴿ ما ودعك ﴾ ثم ذكر ا الشواهد الدالة على ذلك النفي ، وهي أيضاً لم تكن شواهد خاصة ، أي لم تكن محصورة في ذاته ﷺ ، بل كانت شواهد علنية ، بمعنى أن يُتْمه وضلاله وفقره كل ذلك كان على ملأ من الناس ، أما شواهد سورة ﴿ الشرح ﴾ فشواهد خاصة ، لم يطلع عليها أحد ، وهي شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، ولذلك جاء الخطاب أكثر خصوصية ، فترك الله تعالى ذكر القضية استناداً إلى أن الحالة محصورة بينه وبين عبده ورسوله .

فقد اتخذ الله عز وجل محمداً ﷺ خليلاً ، وعلم ما كان يجول في نفسه مما يلقاه من عسر في دعوة الناس إلى الإسلام ، فترك جل شأنه ذكر ما كان يخالط نفسه حيناً وحيناً من أن الله لم يحقق له كل مقامات النبوة والرسالة ، وابتدأ بذكر تلك المقامات ، ثم ذكر في الآيتين الخامسة والسادسة أن الدعوة إلى الله أمر يعْتَوِره حالان : عُسْرٌ ويُسْرٌ .

- الاستفهام في الآية استفهام تقريري ، أي : شرحنا لك صدرك ، وشاهد ذلك أن ما عُطِف عليه في بابه جاء بغير استفهام ﴿ ووضعنا ، ورفعنا ﴾ **فما معنى شرح الصدر ؟ وما حده الدلالي في ذات رسول الله ﷺ ؟؟**

الشرح لغة القطع ، ولكنه قطع مخصوص ، ومن ذلك قولهم : شرح اللحم إذا جعله شرائح ، فهو قطع منظم من شأنه أن ﴿ يُفصّل ﴾ قطعة اللحم ، فيجعلها أكثر امتداداً بسبب تعدد الشرائح . والصدر لا سبيل إلى التحكم في حجمه ليصبح أكثر امتداداً ، ولذلك جاء في تفسير شرح الصدر : **فسحناه بما أودعنا فيه من العلوم والحِكَم حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين ، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى**

**والجهل** . وهو تـأويل لنـا عليه بعض الاستدراك ، ومستندنـا في ذلك قوله تعـالى:﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأنعام: ١٢٥

فالشرح المذكور في الآية ليس شرحاً لصدر نبي مُرْسَل ، إنما هو شرح لصدر كل إنسان يختار الإسلام ديناً ، وهذا الإنسان قد يكون جاهلاً لاحظَّ له من العلم ، ولذلك نجد النسفي رحمه الله يقتصر في تأويل شرح الصدر في هذه الآية على قوله : **يوسّع صدره** ، في حين أننا نجده يذهب في تـأويل شرح صدر رسول الله في سورة ﴿ الشرح ﴾ إلى ما أودعه الله في صدر عبده ورسوله من العلوم والحِكَم ، وهو معنى يتقاصر عن استيعاب دلالة شرح الصدر لدى من كان جاهلاً ، ولذلك كان لزاماً أن نفهم شرح الصدر على وجه يستوعب كل مسلم ، نبياً كان أو غير نبي ، **فما السبيل إلى هذا الفهم ؟؟**

إنه هاتان الإشارتان المذكورتان في سورة ﴿ الأنعام ﴾ وهما :

**الأولى** : تعلّق شرح الصدر بقبول الإسلام ، وتعلّق ضيقه بالضلالة . فالصدر إذا انشرح قَبِلَ الإسلام ، وإذا ضاق أعرض عنه . وهذه الإشارة قد لا تكون كافية لجلاء معنى شرح الصدر ؛ لأن الصدر في قياساته المادية يأخذ أبعاداً ثابتة لدى الناس جميعاً ، فكيف يُوْصَف بالسعة حيناً وبالضيق حيناً آخر ؟؟ وهي :

**الثانية** : وهي التي يشير إليها قوله تعالى :﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وهي إشارة تبين للعلماء أنها حقيقة من الحقائق العلمية ، وهي أن نسبة الأكسجين تتناقص كلما تصعدنا في السماء ﴿ الغلاف الجوي ﴾ ومع تناقص نسبة الأكسجين يزداد الهواء تخلخلاً ، أي أن الهواء الذي تستقبله الرئتان من ذلك الهواء لا يحمل

القدر الكافي من الأكسجين الذي اعتاد الجسد عليه ، وهو ما من شأنه أن يجعل الصدر ﴿ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ فيشعر معه الإنسان بضيق في التنفس .

هذا ما توجه إليه العلماء في التفسير في ظل الكشوفات العلمية التي تيسرت للإنسان ، ومع ذلك فإن هذا التوجه لا يمنع من أن تكون هناك إضافة أخرى ، أيضاً تستند إلى الحقائق العلمية ، ومضمون هذه الإضافة كما يلي :

يحيط الهواء بالإنسان من جميع الجهات ، وللهواء ضغط على جسد الإنسان ، وهو ما يُقال له الضغط الجوي ، وكذلك جسد الإنسان له ضغط إلى خارج الجسد ، وقد قدّر الخلاق العليم لهذين الضغطين أن يكونا في نِسَبٍ معلومة يتحقق بها التوازن في جسد الإنسان ، **فما الذي يحدث إذا تصعّد الإنسان في السماء ؟؟**

ذكر العلماء أن الضغط الجوي يتناقص كلما ارتفعنا في الغلاف الجوي ، فإذا تصعد الإنسان في السماء حدث معه اختلاف في الضغطين ﴿ نقصان في الضغط الخارجي وتزايد في الضغط الداخلي ﴾ وهو ما من شأنه أن يؤثر سلباً على حركة الرئتين : تزداد انبساطاً بزيادة الضغط الداخلي ، ويتناقص انقباضهما لنقصان الضغط الخارجي ، وتكون النتيجة اختلالاً في نظام الشهيق والزفير ، أضف إلى ذلك ما ذكرناه من شأن نقصان الأكسجين . فسعة الصدر وضيقه أمران مرهونان بحالة الرئتين في الانقباض والانبساط . **فما علاقة ذلك بالضلالة والهداية من جهة ، وبشرح الصدر من جهة أخرى ؟**

قال ﷺ : ﴿ **إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح** ﴾ قيل : وما علامة ذلك ؟ قال : ﴿ **الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت** ﴾ رواه البيهقي وابن أبي شيبة وعبد الرزاق وابن جرير وابن المبارك .

رُغْم أن سند الـحديث فيه مقال فإن المتن متن صحيح لا تشوبه شائبة ، فالنـور هو الإسلام ، وأما أصله وحقيقته فالقرآن الكريم الذي أسماه الله تعالى نوراً ، ومظهر دخوله إلى القلب هو أن يجد الإنسان في نفسه قبولاً له ، وبهذا القبول يكون انشراح الصدر ، أي انبساطه عند سماع القرآن .

ولإيضاح الصورة نذكر سمة من سمات الحالة الإنسانية ، ألا وهي أننا نجد الإنسان إذا أجبره أحد على سماع كلام لا يحبه استمع إليه وهو منقبض الصدر ، فإذا انقضى ذلك الكلام وانصرف صاحبه تنهّد ذلك الإنسان تنهيدة طويلة ، يشعر معها بارتياح كان قد افتقده أثناء الاستماع . وبالمقابل فإن الإنسان إذا كان في حالة ضيق وانقباض ، ثم أقبل عليه شخص يحبه بكلام يجد له قبولاً كبيراً في نفسه تنهّد تنهيدة طويلة شعر معها وكأن حِمْلاً كبيراً قد انزاح عن صدره .

وفي شأن الذين يقابلون القرآن بصدور ضيقة قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ الإسراء: ٤١ أما المؤمنون فأذكر ، في وصف حالهم مع القرآن ، قول رسول الله ﷺ : ﴿ ... **ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء** ﴾ رواه الترمذي . فالقرآن نور ، ودخوله في القلب مرهون بقبول القلب له ، فإذا دخل حصل الانشراح والانفساح ، ومظهره في الصدر سلاسة انقباض الرئتين وانبساطهما ، والذي يُعَدّ ترجمة لما تلبست به النفس من سكينة وطمأنينة من جرّاء الاستماع إلى كلمات الله .

- وفي اللسان العربي يُطْلَق مصطلح : سعة الصدر على الرجل إذا كان حليماً ، وذلك أن الرجل إذا غضب وتوتر حال الإساءة إليه تقاصَرَ نَفَسُه وتسارع ، وما ذاك إلا لأن الرئتين لاتبلغان الحد المعتاد في الاتساع ، أما الحليم فإنه لايستثيره سفه السفهاء ، أي لا ينفعل ولا يتوتر إذا سمع أذى في نفسه ، وبالتالي يبقى صدره واسعاً ، ومظهر هذا الاتساع

هو بقاء الرئتين في وضعهما المعتاد ، وهو معنى الانشراح .

وأجدني مُلْزَماً باختار هذا المعنى في تأويل ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ لأنه المعنى الذي ينسجم مع ما ذكرته في ملحظ سبب النزول ، وهو ما كان يجده ﷺ من صدّ المشركين وإعراضهم وأذاهم ، فخشي أن يكون ذلك بسبب إعراض من ربه عنه ، وهو ما تم الالتفات إليه في الآيتين الخامسة والسادسة ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ لبيان أن سبيل الدعوة محفوف بهذين الأمرين ، وأن الله تعالى إنما شرح صدره ليكون أكثر صبراً على ما كان يلقاه من المشركين ، فلا يكون حاله معهم كحال نوح عليه السلام مع قومه . فكانت دلالة شرح الصدر على حلمه ﷺ توجُّهاً إلى ذكر نعمة خُصّ بها من دون الناس جميعاً ، وذلك أن كل حليم لامناص له من أن يبلغ حداً يفقد عنده ذلك ، أما محمد ﷺ فمُنَزَّهٌ عن ذلك ، لأنه لايزداد مع الجهل عليه إلا حِلْماً ، وهو نص الحديث التالي :

جاء زيد بن سَعَنَة ، وكان من أحبار اليهود ، إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً عليه ، فجبذ ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له ، ثم قال : أنتم يابني عبدالمطلب مُطْلٌ ، فانتهره عمر وشدّد له في القول ، والنبي ﷺ يبتسم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي** ﴾ ثم قال ﴿ **لقد بقي من أجله ثلاث** ﴾ وأمر عمر يقضيه ماله ، وأن يزيده ثلاثين صاعاً لما روّعه . فكان ذلك سبب إسلامه . أما زيد هذا فقال : ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : **يسبق علمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما** ... رواه الحاكم في المستدرك

وقد نظمت هذا المعنى في الأبيات التالية :

لاهُمَّ صَلِّ على ذِي الحِلْم والمَهَلِ    مَـنْ فَـاقَ كُـلَّ حَليمٍ كـانَ فِي الأُمَمِ

إذْ أنَّ كـلَّ حَـليـمٍ حَـدُّهُ فَـشَـلُ    وحِـلْمُ أحْمَدَ لا يَخْبُـو على القِـدَمِ

سَالتْ دِماهُ ، وعَضَّ الجوعُ مأكَلَه    مِنْ عُصبَةِ الجَهْلِ والطُّغْيانِ والصَّمَمِ

فـجَـاءَهُ مَـلَـكُ الأوْتَـادِ يَـسْأَلُـهُ    أنْ يُسْقِطَ الـجَبَلَيْـنِ فَوقَ كُـلِّ عَم

فاخْتَـارَ دَعْـوةَ ذي حِلْمٍ بلا ضَغَنٍ    هَدْيَـاً ومَـغْـفِـرةً لِكُلِّ مُـقْـتَـحِـمِ

والإشارة إلى هذه الصفة من قِبَل الرحمن ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ تذكير منه سبحانه لعبده ورسوله بتلك الهبة التي جعلته قادراً على الصمود أمام شراسة هجمة المشركين وسواهم .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ الشرح: ٢

الوزر : الحمْل الثقيل ، وهو لفظ يصلح للدلالة على أكثر من معنى ، فالذنب وزر ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ الأنعام: ٣١ . وما يُسْند إلى الإنسان من مهام أيضاً يُقال له وزر ؛ لأنه أمر كُلِّف بأدائه ، فهو مُلْزَم به ومُحَاسَب عليه ، وهذا المعنى اعتمده البعض في تأويل هذه الآية فقالوا : خففّنا عنك أعباء النبوة والقيام بها . وهو في رأيي تأويل بعيد ؛ لأن أمر النبوة والرسالة تكليف لا يخضع للتخفيف الذي يُجْريه الله للعباد فيما يشرعه لهم من عبادات ، فقد كُلِّف محمد ﷺ بالبلاغ عن ربه ، والصبر على ما يلقاه من عَنَتٍ في سبيل ذلك .

وبـذلـك لا يبقى أمامنـا في تأويل ﴿ وِزْرَكَ ﴾ سوى الدلالة على الذنب ، وهي دلالة

حاصلة لدى رسول الله ﷺ بشهادة القرآن الكريم ، وذلك لقوله تعالى في خطاب عبده ورسوله : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ محمد: ١٩ . وعن عائشة رضي الله عنها :أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه ، فقالت عائشة : لِمَ تصْنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟؟ قال : « **أفلا أكون عبدا شكورا** » رواه البخاري ومسلم .

**أولاً : الغاية من وضع الوزر**

الآيات الأربع الأولى ساقها المولى عز وجل لتذكير عبده ورسوله بالعطاءات الجليلة التي أمدّه بها للاضطلاع بمهمة النبوة والرسالة : ففي الآية الأولى ذكر شرح الصدر الذي جعله على قدْرٍ عظيم من الحِلم ، فكان أكثر الناس صبراً على تحمّل ما كان يلقاه من صدود المشركين وأذاهم . وفي هذه الآية ذكر وضع الوزر عنه ؛ ليصرف عن قلبه همَّ الانشغال بوزره ، وذلك ليكون انشغاله محصوراً في البلاغ عن ربه ، ومعالجة ما يجده من صدود المشركين وإعراض عن دعوة الإسلام .

**ثانياً : حد ذنب رسول اللّه ﷺ**

استعظم أهل الإسلام أن يُنْسَب الذنب إلى رسول الله ﷺ ، وهو النبي المعصوم ، ولذلك جعلوا حد الذنب عنده أن يترك فعل الأفضل ويفعل الفاضل ، وهو ما لاتستقيم نسبته إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنه كان دائماً يفعل الأفضل ، وذلك من وجهين : إن كان الأمر بينه وبين ربه فعل الأفضل ، ومن ذلك قيامه الليل حتى تتفطر قدماه ، وإن كان الأمر على وجه يتعلق بالأمة أخذ بما هو أيسر ، بل ويغضب ممن يخالف ذلك التيسير ، كما فعل مع معاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أطال القراءة في صلاته بالناس ، وهذا الذي كان يفعله ﷺ إذا صلى بالناس هو الأفضل من حيث موافقته لما أراده الله بالناس من يُسْرٍ في شِرعة الإسلام .

أي أن تأويل الذنب في حق رسول الله ﷺ بترك الأفضل تأويل مردود ، ومن جهة أخرى فإن تأويل ذنبه بغير دلالة الذنب المباشرة إفراغ للآيات التي تذكر ذلك من

مضمونها . إذ كيف يقول له ربه ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ وهو ليس لديه ذنب ؟؟

كان بمقدور المولى عز وجل أن يعصم عبده ورسوله من أن يقع في أي ذنب من الذنوب ، ليكون حاله بذلك كحال الملائكة ، ولكن الله عز وجل خلقه بشراً ، ومن سمات البشر أنهم يذنبون ، فأراد المولى عز وجل لعبده ورسوله أن يكون متلبساً بهذه السمة ؛ حفْظاً وتأكيداً لكونه بشراً كغيره من الناس . إلا أن كونه نبياً مُرْسلاً يستوجب تعاملاً خاصاً معه من قِبَل ربه ، لأن ما سيفعله ستمضي عليه الأمة ، وتعُدُّه باباً من أبواب الدين ، ولذلك نجد الله تعالى يذكر ذلك الذنب ، ويُنبه عبده ورسوله إليه ، ويُؤسّس عليه تشريعاً للعباد ، ومن ذلك تحريمه العسل على نفسه بغير وحي من ربه ، فأنزل الله عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ التحريم: ١ فعقب جل شأنه على ذلك بذكر اسمه ﴿ غفور رحيم ﴾ فدل بذلك على أن ما فعله عبده ورسوله كان ذنباً . والذنوب تنقسم إلى قسمين : صغائر وكبائر ، وهو ما بينه عز وجل في كتابه وفي سنة عبده ورسوله ، أما رسول الله ﷺ فمُبَرّاً من أن يقترف أيّاً من تلك الكبائر ، أما الصغائر فقد يقع فيها ، إلا أن وقوعه فيها وقوع محدود ، تكتنفه سمتان ؛ الأولى أنه يقع عفْواً ، والثانية أنه أخفى من أن يلحظه بشر ، ولذلك لا نجد في كتب السيرة ما يذكر شيئاً من ذلك ، وكل ذلك إنما كان تقديراً من العليم الحكيم ؛ مراعاة لمقام النبوة والرسالة ... إلا أن الصغيرة من رسول الله ﷺ أكبر من صغيرة غيره من الناس ، وهي دلالة الوزر .

**ثالثاً : لماذا ﴿ وزرك ﴾ وليس ذنبك ؟**

لو قيل : ذنبك ، لاقتصرت دلالة الوضع على الذنوب ، ولكنه سبحانه أراد أن يتجاوز حد الذنب ولذلك قال ﴿ وِزۡرَكَ ﴾ لدلالة الوزر على كل ما يحمله الإنسان ، ذنباً كان أوغير ذلك . ومن أعظم دلالات الوزر على الحِمل وزر الأمانة المذكورة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ الأحزاب: ٧٢ . فقد كانت هذه الأمانة حِملاً ثقيلاً

﴿ وزراً ﴾ أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن من تبعات حَمْلها ، فجاء الإنسان بجهله فحملها . وإطلاق لفظ ﴿ الإنسان ﴾ يمضي به إلى كل إنسان ، ورسول الله ﷺ إنسان ، فهو بذلك مشتمل على ذلك الحِمل الثقيل ﴿ا لوزر ﴾ .

## فما هو هذا الحِمل ؟؟

إنه الخلافة في الأرض ، وهي خلافة تستلزم أن يكون المُسْتَخْلَف مختاراً ، أي مجبولاً على صلاحية الاختيار بين الكفر والإيمان ، والطاعة والعصيان ، وهي دلالة الكَبَد المذكورة في قوله تعالى :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ البلد: ٤ . فالملائكة ، مثلاً ، لايجدون مشقة في طاعة الله ، فقد خلقهم الله مجبولين فقط على الطاعة ، أما الإنسان فقد جبله الله على الفجور والتقوى ، ولذلك هو يكابد مشقة رد نفسه عن الفجور ، وحملها على التقوى .

## فكيف وضع الله هذا الوزر عن عبده ورسوله ؟؟

● قال ابن إسحاق : نَفَرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : ﴿ نعم . أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسْتُرْضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطِسْتٍ من ذهب مملوءة ثلجاً ، **فأخذاني فشقا بطني . واستخرجا قلبي فشقاه . فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها . ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه** ...﴾

إن بقاء صدر رسول الله وقلبه على الوضع الأصلي الذي خُلِق عليه الإنسان سيجعله أكثر تلبساً بمكابدة جِبِلّة الفجور في نفسه ، فكان من إعداد الله له حتى يكون نبياً مرسلاً أن أزال العلقة السوداء من قلبه ، وغسل قلبه وصدره غسلاً مخصوصاً ، وبماء مخصوص .

وكان من أثر هذا الإعداد أن رسول الله ﷺ كان على خلق عظيم حتى قبل أن يخاطبه الله تعالى بالنبوة ، فقد اشتهر بين قومه بالصادق الأمين ، وقد ذكرت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها جملة من أخلاقه إذ قالت له : **إنك لتصل الرحم . وتصدق الحديث . وتحمل الكلَ . وتقري الضيف . وتعين على نوائب الحق** . ولم يكن ﷺ في شيء من أمور الجاهلية ، ولم يكن ذلك باختيار منه ، فقد كان يتوجه إلى كل خير

وفضيلة توجهاً تلقائياً . فقد وضع الله عنه ذلك الحِمْل الثقيل الذي جُبل عليه الإنسان ، وهو مكابدة مشقة إرغام النفس على فعل الخير وترك الشرور .

- ومما يلحق بدلالة وضع الوزر عن رسول الله ﷺ ما ذُكِر من أمر شيطانه في الحديث المرويّ عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، فغِرْتُ عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : ﴿ **ما لكِ يا عائشة ؟ غرتِ ؟** ﴾ فقلت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال رسول الله : ﴿ **أقد جاءك شيطانك ؟** ﴾ قلت : يا رسول الله ، أو معي شيطان ؟ قال : ﴿ **نعم** ﴾ قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : ﴿ **نعم** ﴾ قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : ﴿ **نعم ،ولكن ربي أعانني عليه فأسْلمَ** ﴾ رواه مسلم .

فلكل إنسان شيطان لا يفارقه ، يدعوه إلى معصية الله ، وهو بذلك يجعل الحِمْل على الإنسان أعظم ثقلاً ، فليس الأمر مقصوراً على مكابدة أهواء النفس ، فهناك شيطان يحرك فيه رغبة المعصية ، فكان من دلالة وضع الوزر عن رسول الله ﷺ أن تدَخَّل الله بقدرته فجعل شيطانه مُسْلماً ، فلا يوسوس إلا بخير ...

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ الشرح: ٣

وصف جل شأنه ذلك الوزر بأنه ﴿ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ وأهل اللغة يقولون : أَنْقَض الحِمْلُ ظَهْرَ الناقة إذا سُمِع لظهرها صَرِيْر من ثِقل الحِمْل . فما هو الوزر الذي أنقض ظهره واستمر معه إلى سن الأربعين ؟؟

قبل الإجابة على ذلك لابد من الإشارة إلى نظامي الفصل والوصل اللذين خضعت لهما هذه الآية والآية السابقة لها : فقد فصل جل شأنه بين الآيتين بفاصل رقمي ، فدل بذلك على مُطْلق الوزر ، وهو تلك المعاني التي بسطناها في الصفحات السابقة ، والتي جعلت محمداً ﷺ متصفاً بمكارم الأخلاق ، ناهيك عن تجرده من أمور الجاهلية ... أما الوصل فهو في الربط بين ﴿ وِزۡرَكَ ﴾ وبين الصفة ﴿ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ من خلال الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِىٓ ﴾ وهو وصل يشير إلى أن رسول الله ﷺ حمل ذلك الوزر زمناً حتى ناء

به ظهره ، وقد تبين لنا فيما سبق أن دلالة الوزر على ما جُبلت عليه نفسه من فجور وتقوى قد صرفه الله عنه إذ كان طفلاً ، فعاش أربعين سنة لا يجد لذلك الوزر مكاناً على ظهره ، **فما هو الوزر الذي استمر معه أربعين سنة فأنقض ظهره ؟**

إنه الضلال عن معرفة الله تعالى ، وذلك أن الإنسان خُلِق ليعبد الله وحده ، وقد أودع جل شأنه ذلك في أصل فطرته ، فكان هذا الإيداع وزراً ، أي حِمْلاً ثقيلاً حُمِّله الإنسان ، فهو يكابد مشقة بلوغ هذه الحقيقة ، وعلى هذا الوجه كان محمد ﷺ قبل أن يُوْحَى إليه ، فكان حاله كحال إبراهيم أبيه عليه السلام الذي كابد مشقة الوصول إلى معرفة ربه حتى هداه الله إليه ، فقرت نفسه . وذلك أنه لم يؤمن بألوهية تلك الأصنام ، وكان قلبه وبصره يتقلبان في الكون بحثاً عن الإله الحق ، ولكن بدون جدوى ، فكان ذلك وزراً حمله على ظهره سنوات طويلة حتى ناء ظهره بذلك الحمل . فوضع الله عنه ذلك الوزر بنزول جبريل عليه السلام عليه في غار حراء بالوحي الذي دله على الإله الحق ، فرست سفينته ﷺ في مرفأ معرفة الله تعالى .

﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ الشرح: ٤

استرسلت كتب التفسير في تفصيل معنى رفع ذكره ﷺ ، ومستندهم في ذلك كثرة الشواهد الدالة على رفع ذكره في الدنيا والآخرة ، إلا أنني سأعتمد مفصلاً هاماً في بيان معنى الآية ، وهو أن هذه السورة سورة مكية ، أُنْزِلت على قلب رسول الله ﷺ في أول الدعوة ، أي قبل أن تتوالى الآيات والأحاديث التي تذكر وجوه رفع ذكره ﷺ في الدنيا والآخرة ، ومثال ذلك أن رفع ذكره ﷺ بذكر اسمه في الآذان لم يَجْرِ إلا بعد تشريع الأذان في المدينة المنورة . أي أن قوله ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ يتوجه إلى ما سبق من حياته ، أي قبل نزول هذه السورة ، **فكيف رفع الله ذكره ؟**

العطاءات الثلاثة المذكورة في هذا المقطع ليست عطاءات منفصلة عن بعضها البعض ، بل هي عطاءات متصلة ، وفيما يلي بيان لهذا الاتصال :

العطاءان الأولان " شرح الصدر ووضع الوزر " عطاءان متصلان ، وذلك من وجهين : **الأول** : كل منهما عطاء ذاتي ، بمعنى أن حركة كلٍّ منهما محصورة في ذات رسول الله ﷺ . **والثاني** : كلٌّ منهما يمثل منظومة متكاملة ، فشرح الصدر يعني الحِلْم ، ووضع الوزر تبين لنا في تفصيلاته أنه أمر مُفْضٍ إلى حسن الخلق ، وهما ، أي الحلم وحسن الخُلُق ، إذا اجتمعا في ذات كانا الإطار العام الذي يستوعب كل فعاليات هذه الذات ، وهنا يبرز وجه الارتباط بين هذين العطاءين وبين رفع ذكره ﷺ ، فقد بلغ من الحِلْم وحسن الخُلُق في قومه الحد الذي جعلهم يلقبونه بالصادق الأمين ، فأصبح عَلَماً يُشَار إليه بالبنان ، بل وجعله سيداً مُطَاعاً في قومه ، وذلك قبل أن يُوْحَى إليه ، ومن شواهد ذلك أن قريشاً اختلفت بطونها فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه ، وبلغ بها الاختلاف حد التوجه للقتال ، لولا ما اقترحه أحدهم من أن يُحَكّموا بينهم أول داخل للبيت ، فلما رأوا محمداً ﷺ رضوا به جميعاً حكماًبينهم .

فحركة العطاء في قوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ليست حركة محصورة في ذات رسول الله ﷺ مثلما هو حال العطاءين الأولين ، بل هي حركة انتشار في الناس . وبالرجوع إلى ما ذكرناه في بيان العطاءين الأولين ندرك أن رفع الذكر كان ثمرة ونتيجة لهما .

- وإذا كان المولى عز وجل قد أشار في هذه السورة إلى رفع ذكره ﷺ قبل أن يُوحي إليه ، فإن سنة رفع الذكر التي اتبعها معه لم تتحول ولم تتبدل ، بل تواصل هذا العطاء حتى غدا ذكره ﷺ ممتداً على طول الزمان ، دنياه وأخراه .

## 2 ـ ما على الرسول إلا البلاغ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ الشرح: ٥ – ٨

هذا المقطع هو البيان الذي أراد الله أن يوجه به عبده ورسوله ، و الذي من أجله تم تذكيره بعطاءاته المذكورة في المقطع السابق ، وقد اخترت له هذا العنوان ؛ لأن فيها توجيهاً لرسول اللهﷺ بعدم الالتفات إلى ما كان يلقاه من عُسْر في دعوة النـاس إلى الإسلام ، فمـا

عليه سوى البلاغ ، وأما الهداية فمن الله .

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٦ ﴾ الشرح: ٥ – ٦

● الفاء رابطة ، بمعنى أن ما بعدها مُؤسّس على كلام أو موقف سابق ، وهو ما أشرت إليه في بيان علاقة هذه السورة بسورة ﴿ الضحى ﴾ وهو أن رسول الله ﷺ كان يجد في نفسه شيئاً بسبب ذلك العسر الذي كان يلقاه في البلاغ عن الله تعالى ، فجاءته البشارة من الله في هاتين الآيتين ، وهو أن هذا العسر الذي يراه جعل الله معه يُسْراً ، بل جعل معه يُسْرين لقول رسول الله ﷺ تعقيباً على هاتين الآيتين : ﴿ لن يغلب عسر يسرين ﴾ مسند عبد الرزاق . وذلك أن الألف واللام في كلمة " العسر " للجنس ، أي تستغرق العسر كله ، فهو عسر واحد ، أما كلمة " يُسْر " فنكرة ، والنكرة تفيد العموم ، والعموم يقتضي التعدد ، ففي الآية الأولى يُسْر ، وفي الثانية يُسْر آخر .

● وهذا التأكيد على مرافقة العسر لليسر بيان من عالم الغيب والشهادة وبشارة لعبده ورسوله بأن ما يجده من عسر في الدعوة سيلحقه يُسْر عظيم ، وهو ما تجلى مع إيمان الأنصار في بيعتي العقبة ، الصغرى والكبرى ، ثم بالهجرة إلى يثرب وتأسيس نواة دولة الإسلام ، ثم الفتوحات المتتابعة إلى أن عم الإسلام جزيرة العرب .

﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴾ الشرح: ٧

الفراغ من الأمر يعني الانتهاء منه ، وكأن المرء ، حال انشغاله بأمر ما يكون ممتلئاً به ، فإذا قضاه كان ذلك فراغاً منه . والنَّصَب التعب ، والتعب لا يكون إلا من عمل ، أيّاً كان ذلك العمل . والفعلان ﴿فرغت ، انْصَبْ﴾ فعلان مبهمان ، أي لم يبينا المفروغ منه ولا وجه النصب ، وهذا الإبهام تعددت بسببه التأويلات ، إلا أنني سأقتصر على ذكر ما أراه ألصق بالسياق ومقام البيان ، وذلك أن مدار الخطاب في السورة هو إرشاد رسول الله ﷺ إلى السنن التي تكتنف دعوة الناس إلى رسالة السماء ، وتكتنف الرسل الذين يقومون بالبلاغ عن الله تعالى . فقد كان ﷺ في مبدأ تكليفه بالبلاغ ينتهج أموراً في الدعوة إلى الله انطلاقاً

مما تفرضه عليه طبيعته البشرية ، يحركه في ذلك حرصه البالغ على إسلام الناس ؛ ومن ذلك أنه عبس في وجه الأعمى ، ولما رأى إصرار المشركين على شركهم ، وضعف المسلمين وقلة أعدادهم ، وسطوة المشركين ، خشي أن يكون ذلك بسبب إعراضٍ من ربه عنه ، فذكَّره الله في الآيات الأربع الأولى بما يؤكد له إقبال ربه عليه ، ثم بيّن له في هاتين الآيتين أن من سننه في الأرض أن الأمور لا تكون يُسْراً مطلقاً ولا عُسْراً مطلقاً ، بل يعتورها الأمران : العسر واليسر ، ومن ذلك دعوة الناس إلى الإيمان .

وعلى ذلك فإن وحدة البناء الدلالي واللغوي تستوجب دوران قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ في فلك ذلك البيان ، أي أن يكون قوله ﴿ فَرَغْتَ ﴾ دالاً على الفراغ من دعوة الناس ، وحد هذا الفراغ هو إقبال الليل الذي يأوي فيه الناس إلى مساكنهم ، وهنا تأتي دلالة ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ وهي قيام الليل ، فقد كان ﷺ يُجْهِد نفسه في قيام الليل ، فكان يصلي حتى تتفطر قدماه ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ ﴾ المزمل: ١ – ٤

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ الشرح: ٨

- قُدِّم الجار والمجرور ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ على مُتَعَلّقه ﴿ فَٱرۡغَب ﴾ فأفاد بذلك أن الرَّغَب يجب أن يتوجه إلى الله وحده ، والفعل « رغب » فعل يتعدى بالحرف فيُقال : رغب في الشيء ، وذلك إذا أراده وطلبه ، ويُقال : رغب عن الشيء ، وذلك إذا لم يُرِدْه وأعرض عنه . أما استخدام حرف الجر « إلى » فيمضي بالفعل للدلالة على الجهة التي يتوجه إليها الإنسان برغباته ، فهو ، مَثَلاً ، يرغب في الجنة ، وهي رغبة يتوجه بها "إلى" الله .

- قوله تعالى في الآية السابقة ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ ليس معه ما يشير إلى وجهة ذلك النَّصَب ، فجاء قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ لبيان الغاية المقصودة من ذلك النصب ، وهي الرغبة إلى الله وحده ، وبالنظر إلى السياق العام فإن مدار هذا الرغب هو إيمان الناس ، فقد كان

ﷺ حريصاً على أن يُسْلم الناس ، ومن ذلك قوله تعالى في شأنه : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ التوبة: ١٢٨ فكان يشق عليه ﷺ ذلك العسر الذي يجده في توجيه الناس إلى الإيمان ، وقد قال جل شأنه مخاطباً إياه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ القصص: ٥٦ . ولذلك أمره ربه أن يتوجه بالرغب في إيمان الناس إلى الله ، وسبيل هذا التوجه هو الدعاء والاجتهاد فيه .□

# الفهرس


سورة الضحى ........................................................ 2٠

سورة الشرح ........................................................ 27